قراءة جديدة لمشهد الرِّحلة في القصيدة الجاهليَّة

د. رائد رشيد الحاج حسن

المقدِّمة:

كثرت الدراساتُ التي تناولت مشهد الرحلة في الشعر الجاهليّ، وانطلقت من مبدأ اعتماد حياة العرب في جزيرتهم على التنقل والترحال سعيًا وراء مساقط الغيث ومنابت الكلأ، أو رضوخًا لعوامل قبليَّة أو اجتماعيَّة، وكان يتبع هذا التنقل والارتحال حسرةٌ ولوعةٌ في نفوس القاطنين خلف من يرحلون، بعد أن قامت الجسور الوجدانيَّة والروابط الإنسانيَّة بين المحبّين. ويأتي الشعراء في مقدّمة الذين تتحرَّك مشاعرهم وأحاسيسهم بمشاهد الرحيل متفجرةً شعرًا ينطق بألم الفراق، وهكذا يجهد الشاعر نفسه، وهو يتابع ظعائن الراحلين بنظرٍ غائرٍ وقلبٍ تمزقه الحسرات، فينفث ما شعر به شعرًا يرافق هذه الظعائن في حلّها وترحالها.

أوَّلًا: رحلةُ الجماعة (القبيلة):

يمكن أن يكون كتاب الدكتور وهب أحمد روميّة (الرحلة في القصيدة الجاهليَّة) واحدًا من أهم الدراسات التي تناولت مشهد الرحلة والتي يقدِّم فيها تسويغًا لانتشار الرحلة بقوله: «في ضوء العلاقة الحميمة بين الأدب والوجود الاجتماعيّ يمكن للمرء أن يعلِّل أمورًا كثيرة، أحدها انتشار الرحلة بلونيها: رحلة الظعائن، والرحلة على الناقة في أدبنا العربي القديم، انتشارًا واسعًا كانتشار القبائل في تلك الصحراء أو انتشار الآل والطلول ومواطن النجعة»(١). وهو ينظر إلى هذا المشهد على أنه قصةٌ قصيرةٌ مصوّرةٌ، فيقول: «ويحكي الشعراء في هذا اللون من الأغاني قصةً قصيرةً ملمومة الأطراف، شاخصة المعالم، فيها من الوصف أكثر ممّا فيها من القصّ، حتى توشك أن تكون قصّةً مصوَّرة، وهي قصة هذه الرحلة في طائفة يسيرة من المشاهد الصغيرة المتتابعة»(٢).

وقد دفعتني وجهة نظر الدكتور روميَّة في مشهد الرحلة إلى التعمُّق بدراسة عناصر القصة فيه. وهذا طفيل الغنويّ يصور مشهدًا من مشاهد الرحيل، إذ شاقته الأظعان التي حدا بها الحداة، وأطلّ يتابعها ببصره حتى كادت تختفي، يقول:

أَشاقَتْكَ أَظعانٌ بِجَفنِ يَبَنْبَم
نَعَمْ بُكْرًا مِثْلَ الفَسيلِ المُكَمَّم
غَدَوْا فتأَمَّلْتُ الحُدوجَ فَراعَني
وقدْ رفَعوا في السَّيرِ إبْراقَ مِعْصَم
فَقلتُ لحَرَّاضٍ وقد كِدْتُ أَزدَهي
منَ الشَّوقِ في إثْرِ الخَليطِ المُيَمَّم:
أَلمْ تَرَ ما أَبصرْتُ، أم كُنْتَ ساهيًا
فتُشْجَى بِشَجْوِ المُستهامِ المُتَيَّم؟
فقالَ: ألا لا لم ترَ اليومَ شُبْحَةً
وما شِمْتَ إلاَّ لَمْحَ برقٍ مُغيَّم
وربِّ الذي أَشرفْنَ من كُلِّ مذنَبٍ
سَواهِمَ خُوصًا في السَّريعِ المُخَدَّم
يَزُرْنَ إلالًا لا يُنَحْبِنَ غَيْرَهُ
بِكُلِّ مُلِبٍّ أشعَثِ الرَّأسِ مُحرِم
لقدْ بيَّنْتْ للعينِ أحداجُها معًا
عليهِنَّ حَوْكيُّ العراقِ المُرقَّم
عُقارٌ تَظَلُّ الطَّيرُ تَخطفُ زَهْوَهُ
وعَالَيْنَ أَعلاقًا على كُلِّ مُفْأَم
وفي الظَّاعنينَ القلبُ قد ذَهَبَتْ بِهِ
أَسيلَةُ مجرى الدَّمعِ رَيَّا المُخَدَّم(٣)

يبدأ الشاعر-وهو الشخصيَّة الرئيسة في هذا المشهد- قصته بحوارٍ داخليٍّ يُظهر ألمه لرحلة الظعائن، وقد حدّد المكان التي جرت فيه الأحداث (جَفْن يَبَنْبَم)، فمن هذا المكان انطلقت الرحلة، كما حدّد زمانها في الصباح (غَدَوْا)، ووقف الشاعر متأمِّلًا مراكب الظاعنين فراعه هذا المشهد، وقد جدُّوا في مسيرهم. وهنا ظهرت شخصية ثانوية في هذه القصة كانت تقف إلى جانب الشاعر ويدور الحوار الخارجي معها، فيوجه الشاعر إليه سؤالًا مباشرًا: هل شاهدت موقف الرحيل مثلي، أم أنك كنت شارد الذهن؟ ويقدم الشاعر وصفًا لحالة صديقه إذ كان قد رأى الموقف، فالحزن سيلمُّ به، وسيبدو كمن فقد عقله وقلبه، ويجيبه صديقه بسؤالٍ يظهر من خلاله بأنه لم يرَ شيئًا من ذلك، وإنما تراءت له أشباح لا أشخاص حقيقيون، كما أنه شاهد البرق والغيوم التي غطت وجه السماء. وعند ذلك يحتدُّ طفيل ويُقسم بالحجِّ وجماله الضامرة الغائرة الأعين، المتوجهة إلى جبل عرفة، وبرجاله

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المحرمين الملبِّين الذين اغبرَّت رؤوسهم، أنه رأى رأي العيان حُدوج صاحبته تجلِّلُها ثياب موشَّاة، وأخرى حمراء تتهافت الطيور عليها تحسبها لحمًا طريًا.

يعيش الشاعر صراعًا داخليًا مريرًا بسبب ارتحال الظعائن، إلى درجة أنَّه بدا كمن فقد عقله وقلبه، ولم يلحظ صاحبه هذا الصراع، إذ كان ساهيًا عن هذا المشهد أصلًا، وفي النهاية تزداد حالة التوتر لدى الشاعر ليعلن أنّ من بين الظاعنين فتاةً جميلةً أخذت قلبه معها، وتنتهي هذه القصة الدرامية عند هذا الحدِّ دون أن يغوص في تفاصيل العلاقة معها. وبذلك يكون الشاعر قد استوفى العناصر الدراميَّة في هذه القصة من شخصيات وزمان ومكان، فالشخصيات هي الشاعر نفسه وصاحبه والظعائن المرتحلة بمن فيها المحبوبة، والحدث هو الرحيل والانتقال، والزمن هو الصباح والمكان هو جفن يَبَنْبَم.

وكان لمشهد الرحلة أيضًا حضوره في شعر امرئ قيس، وتطالعنا قصة الظعائن في شعره في رائيته التي تحدث فيها –كما أشرنا سابقًا– عن سفره إلى قيصر الروم طالبًا معونته لاسترداد ملكه الضائع، ولن أقف هنا لأكرِّر ما كنا قلناه في حديثنا عن أماكن الاغتراب، كي نصل إلى حديث الشاعر عن الظعائن، فيقول:

بعينَيَّ ظُعْنُ الحَيِّ لَمَّا تَحَمَّلُوا
لَدى جانب الأفلاج من جَنْب تَيمَرا
فَشَبَّهتُهُمْ في الآلِ لَمَّا تَكَمَّشُوا
حدائقَ دَوْمٍ أو سَفينًا مُقَيَّرا
أو المُكْرَعات من نخيل ابنِ يامن
دُوَيْنَ الصَّفا اللاَّئي يَلِينَ المُشَقَّرا
سَوامِقَ جبَّارٍ أثيثٍ فُروعُهُ
وعَالَيْنَ قِنوانًا من البُسْرِ أحمَرا
حَمَتْهُ بنو الرَّبْداء من آلِ يامن
لأسيافِهِمْ حتَّى أُقِرَّ وأَوقَرا
وأرضَى بني الرَّبداء واعْتَمَّ زَهوُهُ
وأكمامُهُ حتَّى إذا ما تَهَصَّرا
أضافَتْ به جَيْلانُ عندَ قطاعه
تَرَدَّدُ فيه العَينُ حتَّى تَحَيَّرا(٤)

كان امرؤ القيس يتابع رحلة الظعائن بعينيه، وهو يتحرّق حزنًا على فراقها، محددًا طريقها بجانب الأنهار بموقع (تَيْمَر). وقد شبّه هذه الظعائن وهي تسير في السراب بحدائق الدوم أو السفن المطليّة بالقار التي تمخر عباب البحر، ثم يشبِّه هذه الظعائن بنخيل ابن يامن، ويستطرد في سرد أقصوصة تتعلق بهذا النخيل، إذ غرس هذا النخيل في الماء، واكتمل نضجه حتى استطال وارتفع، وقد سهر بنو الرباداء على حمايته بسيوفهم، حتى آتى أكله، فطاف به عمّال كسرى يصرمونه.

ومن الواضح أن الشجر رمز للحياة والخصب عند الجاهليين، إذ ترتبط صورته بصورة الماء. ويمكن أن نقدر معنى هذا في بيئة صحراوية، يقول أنور أبو سويلم: «إن اختيار النخل في تشبيهات الظعائن له وظيفة عضوية في القصيدة الجاهلية، لأنّه يريدون لظعائن المحبوبة رموز النخلة، وما تعنيه من حياة مستقرة في أرض خصبة ترويها المياه الدافقة، ويريدون أن يباركوا المحبوبة وظعائنها بشجرة الحياة، لتمنحهم الأمن والحماية والحياة الرفهة، لذلك وصفوا النخل بأنه محمل بالثمر والخير، وأن الماء يكاد يغمر سيقانه، وأن الجُناة يطوفون حوله، ولا تمتد أيديهم إليه بمكروه»(٥). وربما كان الشاعر يقصد من هذا التشبيه إلى إحاطة موكب الظعائن بحالة من الأمن والطمأنينة في الوقت نفسه الذي يفتقد فيه الشاعر هذه الحالة.

ثم يستطرد الشاعر إلى ذكر الظعائن فيقول:

غَرائرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمَة
يُحَلَّيْنَ ياقوتًا وشَذْرًا مُفقَّرا
وروح سَنًا في حُقَّة حِمْيَريَّة
تَخُصُّ بمَفْرُوكٍ منَ المسكِ أَظْفَرا
وبَانًا وأَلْوِيًا منَ الهِنْدِ ذاكيًا
وَرندًا ولُبنى والكباءَ المُقَتَّرا
عَلِقْنَ بِرَهْنٍ من حَبيبٍ بـ(ادَّعَتْ
سُلَيمى) فأَمسَى حَبْلُها قَدْ تَبَتَّرا

كانت هذه الظعائن غرائر مصونةً، بناتَ نعمة وترف، ويظهر هذا فيما ارتدين من الياقوت، وفي الرائحة الطيبة التي تفوح منهن، وحينذاك تذكَّرَ الشاعر ما كان بينه وبين سليمى، إذ تقطّعت أواصر المحبة بينهما. وهكذا تستمر مأساة الشاعر، ويجد نفسه وحيدًا بعد أن ارتحلت عنه المحبوبة مع الظعائن.

ويفتتحُ عبيد بن الأبرص قصيدته اللاميَّة بتصوير المنازل الخاوية البالية، وأصحابها الراحلين عنها، إذ صوَّر في أوّل المقدمة حاله وقد وقف على المعاهد الدارسة يبكي على الرغم من محاولته إيقاف دموعه، لأنه أصلب من أن تستثيره الديار الخاوية وتبكيه، يقول:

أمنْ منزلٍ عافٍ ومن رسم أطلال
بكيْتَ؟ وهل يبكي من الشَّوق أمثالي؟
ديارُهُمُ إذْ همْ جميعٌ فأصبحَتْ
بسابسَ إلاَّ الوحشَ في البلد الخالي(٦)

وتلحُّ عليه الذكريات الحزينة، ويسترجع الأيام التي كان فيها أبناء عمومته من بني أسد يعيشون فيها مجتمعي

الشمل مطمئنين، قبل أن تنزل بهم نوائب الدهر، وقبل أن تطويهم يد الردى، فهو لن ينساهم طوال حياته، حيث يقول:

فَقدمًا أرى الحيَّ الجميعَ بغبطَة
بها، واللَّيالي لا تدومُ على حالِ
أَبَعْدَ بني عمِّي ورَهْطي وإخوتي
أُرَجِّي لَيانَ العيش ضُلاً بتَضْلالِ
فَلستُ وإن أَضْحَوا مَضَوا لسبيلهِمْ
يناسبهم طولُ الحياة ولا سالي(٧)

ويخلص من ذكرياته إلى سرد قصَّة الظعائن وهي تسير في شعاب الصحراء وسهولها، والحُداة ينهرون الإبل ويستحثُّونها، ويؤلمه ذلك، لأنه آذنَ ببُعْد محبوبته عنه، وقرّب انفصالهما إلى غير لقاء، حيث يقول:

ألا تقفانِ اليومَ قبلَ تفرُّقٍ
ونَأْيٍ بعيد واختلاف وأشْغالِ
إلى ظُعْنٍ يسلُكْنَ بينَ تَبَالَةٍ
وبينَ أعالي الخَلِّ لاحقة التَّالي
فلما رأيْتُ الحاديَيْن تكمَّشا
نَدمتُ على أن يَذْهبا ناعميْ بالِ
رفَعنا عليهنَّ السِّياطَ فقَلَّصتْ
بنا كلُّ فتلاء الذِّراعيْن مِرْقالِ
خَلُوجٌ برِجْلَيها كأنَّ فُروجَها
فَيَافي سُهوبٍ حينَ تَحْتَثُّ في الآلِ
فأَلحقَنا بالقوم كُلُّ دفقَّةٍ
مُصَدَّرَةٍ بالرَّحْلِ وَجْنَاءَ شملالِ(٨)

تدور أحداث القصَّة هنا حول مشهد رحيل الظعائن الذي حاول الشاعر من خلاله أن يجد لنفسه العزاء ممَّا ألمَّ به. وشخصيَّات هذا المشهد كثيرة، ففي جانب يقفُ الشاعر ورفيقاه، وفي الجانب الآخر هناك الحاديان والظعائن المرتحلة. وفي البداية يطلب الشاعر من رفيقيه أن يقفا قبل التفرق لاستذكار خطِّ سير الرحلة، حيث سلكن الطريق بين (تَبَالة) وبين (أعالي الخلّ)، واسترجع الشاعر ذكرياته العذبة، وآلمه أن يذهب الحاديان بحبيبته ناعمي البال، وازداد عنصر التوتر والقلق لدى الشاعر، وهو ما دعاه إلى اتخاذ قرار مع رفيقيه باللحاق بهم، فحرَّكوا سياطهم على النوق التي انطلقت مسرعةً حتَّى ألحقتهم بالظاعنين، ويدور بينهم وبين النساء المرتحلات حوارٌ خارجيٌّ، يقول فيه:

فأُبنا ونازَعنا الحديثَ أوانسًا
عليْهِنَّ جَيشانيَّةٌ ذاتُ أغيالِ
فملْنَ إلينا بالسَّوالف وانْتَحَى
بنا القولُ فيما يشتهي المَرِحُ الخالي
كأنَّ صبًا جاءَتْ بريحِ لَطيمَةٍ
منَ المسك لا تُسْطاعُ بالثَّمن الغالي
وريحِ الخُزامى في مَذانِبِ رَوْضَةٍ
جَلا دِمْنَها سارٍ من المُزْنِ هطَّالِ(٩)

وهنا بدأت حالةٌ من السعادة ترتسم على الشاعر ورفيقيه بعد أن تبادلوا الأحاديث العذبة مع النساء المرتحلات، ممّا أضفى على الحديث جمالاً في ذلك الجوِّ المفعم بالرائحة الطيبة الغالية الثمن التي تصدر عنهنّ، وهذا زاد في أجواء السرور والمتعة التي عاشها الشاعر بعد ساعات القلق والتوتر منذ أن أعلن الحاديان خبر الرحيل، وبدأا يحثان الظعائن على الانطلاق. وقد أظهرت أحداث القصَّة أنَّ الشاعر اكتفى بتجاذبه أطراف الحديث مع النساء، ووجد في ذلك متنفَّسًا استوعبَ همومه وآلامه، ولذلك لاحظنا شدّة اندفاعه وراءه.

ثانيًا: رحلةُ الفرد:

١- رحلة المتلَمِّس الضُّبعي:

لم تكن رحلة الفرد شائعةً بشكلٍ كبيرٍ في العصر الجاهلي نظرًا لما تنطوي عليه من مخاطر في ظلِّ وجود اللصوص وقطاع الطرق، والشائع هو رحلة أبناء القبائل مجتمعين من مكانٍ إلى آخر وفقًا لظروف القبيلة واحتياجاتها. لكنَّ بعض الشعراء كانوا يرتحلون وحدهم رغبةً في لقاء الممدوح والحصول على الأعطيات، أو هربًا من ظلم الملوك وتسلطهم كما هو حال المتلمس الضبعي الذي اشتهرت في الآفاق قصته مع الملك عمرو بن هند المعروف بشدَّة بطشه وصرامته(١٠)، فقد استطاع أن ينال من الشاعر طرفة بن العبد وخاله المتلمس.

كانت رحلة المتلمس الضبعي من العراق إلى الشام رحلةً فرديّةً هربًا من موت محتَّم، أمر به ملك الحيرة عمرو بن هند الّذي حمَّل المتلمس وابن أخته الشاعر طرفة بن العبد رسالتين إلى عامله في البحرين يأمره فيهما بقتل حامليّ الرسالتين، بعد أن أخبرهما أنه أمر لهما بالهدايا والأعطيات، وقد ساور الشكُّ نفس المتلمّس الذي كان يشعر بحقد الملك عليه، ففضَّ الرسالة، وعرف مضمونها، وأخبر ابن أخته بذلك، ولكنّ إصرار طرفة على عدم اجتراء الملك على قتله قاده إلى حتفه. وكان الملك قد سمع بهجاءٍ ساخرٍ قاله طرفة بحقّه(١١)، فيمَّم المتلمس وجهه شطر الشام، وأقسم ألا يعود إلى العراق، فقدَّم مشهدًا دراميًّا بطلاه الشاعر وناقته، فليس من السهل على الإنسان أن يترك المكان الذي ولد فيه، ونشأ في ربوعه. فقد بدأت لحظة التوتر منذ اللحظة التي عزم فيها المتلمس على الرحيل:

كم دونَ أسماءَ من مُستَعْمَلٍ قَذَفٍ
ومِنْ فَلاةٍ بها تُسْتَوْدَعُ العِيْسُ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ومِنْ ذُرا عَلَمِ ناءٍ مَسَافَتُهُ
كأنَّه في حَبابِ الماءِ مَغمُوسُ
جاوَزْتُهُ بأمُونٍ ذاتِ مَعْجَمَةٍ
تَهْوِي بكَلْكَلِها والرَّأسُ مَعْكُوسُ(١٢)

بدأت لحظة التوتر في القصيدة منذ اللحظة التي عزم فيها المتلمس على الرحيل، فتعدّدت الأماكن في هذا المشهد، إذ بدأت بأرض العراق وموطن المحبوبة أسماء، حيث اعتصر قلب الشاعر ألمًا لفراقها، ولكنها الرغبة في العيش الآمن بعيدًا عن الظلم والبطش.

بدأ الشاعر هذا المشهد الدراميّ بوصف المكان الذي بات يفصله عن المحبوبة أسماء، فالطريق طويلة، والصحراء مترامية الأطراف، وقمم الجبال بعيدةٌ. كلّ تلك الأماكن قطعها الشاعر على ظهر ناقته، وهي الشخصية الدراميَّة الرئيسة الثانية في هذا المشهد بعد الشاعر.

انتقل الشاعر إلى السرد في هذا المشهد بالفعل (جاوزته) إذ بدأ الزمن يتحرك مع بدء رحلة الناقة، فهذه الطريق الطويلة، وهذه الفلاة الواسعة التي لا تكاد تنجو منها حتى الجمال القوية، ولا سبيل إلى النجاة منها إلا بناقة أمونٍ قادرةٍ على إيصاله بأمنٍ وسلامٍ إلى وجهته الجديدة، ومع أنها كانت تسيرُ باتجاه الشام إلا أن رأسها كان معكوسًا ينظر إلى العراق، فقد عاشت حالةً من الصراع بين الانتساب إلى مكانين متناقضين من الناحية السياسية، وهذا كان عامل الأمان الذي بحث عنه المتلمس، فهو يترك مكانًا فيه حاكمٌ ظالمٌ أصدر أمرًا بقتله، ولكنه في الوقت نفسه يترك مكانًا فيه أهله وأحبته وأرضه ووطنه الذي نشأ فيه، ليعيش في مكانٍ جديدٍ ينعم فيه بالأمن والسلامة والطمأنينة والعدل، وهذا المكان وجده عند الغساسنة الذين يرتبطون مع المناذرة بعداءٍ تاريخيٍّ، حيث يشهد التاريخ بينهما على معاركَ كثيرةٍ تناوب فيها الطرفان على تحقيق الفوز، وارتحالُ المتلمس إليهم يعني أنه سيحقق هدفه من رحلته، مع أنها رحلةٌ مليئةٌ بالمخاطر نظرًا لبعد المكان ومشقة الرحلة على ناقته التي بدأت بالحنين إلى موطنها بعد ظهور مؤشرات جعلتها تتذكر العراق وأهله بعد انطلاق الشاعر.

يقول الشّاعر:

حنَّتْ قَلُوصي بها والليْلُ مُطَّرِقٌ
بعدَ الهُدُوِّ وشاقَتْها النَّواقيسُ
مَعقولَةٌ ينظرُ التشريقَ راكبُها
كأنَّها من هَوَى للرَّمْلِ مَسْلُوسُ
وقَدْ ألاحَ سُهَيْلٌ بعدَما هَجَعُوا
كأنَّهُ ضَرَمٌ بالكَفِّ مَقْبُوسُ
أنَّى طَرِبْتِ ولم تُلحَى على طَرَبٍ
ودون إلْفِكِ أمْراتٌ أمَاليسُ
حنَّتْ إلى نخلةَ القُصْوَى فقلتُ لها:
بَسْلٌ عليكِ، ألا تلكَ الدَّهاريسُ
أُمّي شآميَةً -إذ لا عراقَ لنا-
قومًا نَوَدُّهمُ إذ قَوْمُنا شُوسُ
لَئن تَسلُكي سُبُلَ البَوْباةِ مُنْجِدَةً
ما عاشَ عَمْرٌو وما عُمِّرْتَ قابوسُ(١٣)

يرتحل المتلمس وناقته إلى أرض الشام، ومع حلول الليل، وانتشار الهدوء في الأرجاء، واشتياقها لصوت النواقيس في كنائس العراق، بدأت الناقة تحنّ، واستمرَّ حنينها إلى أن ظهر نجم سُهَيل من جهة الجنوب عند اقتراب الصباح، وهي جهة الحيرة، فكأنّ كلَّ ما حولها يشدُّها إلى موطنها. وفي المقابل هي لا تعرف وجهتها الجديدة، فتأججت لواعج الشوق والحنين في داخلها إلى أرض الوطن، كما أنها لا تعرف سبب رحيلها، وسيكون فرحها غامرًا إذا قرر الشاعر العودة إلى الوطن.

وفي حوار الشاعر معها يتساءل قائلًا: كيف هذا الشوق والحنين يا ناقتي وهناك أرضٌ واسعةٌ باتت تحول دون تحقيق تلك النوازع والأشواق؟ والناقة تردُّ عليه بالحنين إلى موضع (نخلةَ القصوى). والنخل رمزٌ لأرض العراق، ويعلن الشاعر موقفه بشكل صريح بأنّ هذه الأرض أصبحت محرمةً علينا، فلا ينبغي أن تتذكري الوطن أو تشتاقي إليه، لأنَّ العودة ستعني كثرة الدواهي والمنكرات التي سيتعرّض لها في ظلِّ وجود هذا الملك الظالم، ولذلك عليها أن تنساق مع الشاعر وفقًا لإرادته. ويتوجه إليها بخطابه قائلًا لها: «أُمّي شآميَةً»، أي اقصدي الشّام؛ لأنَّ الشام ستكون موطننا الجديد بعد أن خذلنا العراق وأهله، فاختار الشامَ موطنًا، وانتسب إلى هذا المكان، إنهاءً لقصته الدراميَّة.

آليت حَبَّ العراقِ الدَّهرَ أطعَمُهُ
والحَبُّ يأكلُهُ في القريةِ السُّوسُ
لم تَدْرِ بُصرى بما آليتَ من قَسَمٍ
ولا دِمَشْقُ إذا دِيْسَ الكَدَاديسُ(١٤)

في هذا المشهد وصل الشاعر إلى مرحلة حلّ العقدة الدرامية، بإعلانه أنّ الناقة لن تسلك طريق العراق من جديد ما دام عمرو بن هند وقابوس في العراق، ووجّه خطابه إلى عمرو بن هند الذي أقسم ألا يأكل المتلمس من حَبِّ العراق وخيره، فعبّر عن استهزائه بهذا القسم، وأعلن أن العراق لا يمتلك أية ميزة طالما أنه يقبع تحت ظلم هذا الحاكم وبطشه، فالحياة في المكان الجديد (الشام) جميلةٌ،

بينما هي في العراق مرعبةٌ، ولذلك رفض مجرَّد التفكير بالعودة، وحدَّد عدَّة أماكن في الشام مدعيًا أنها لم تسمع بقَسَم الملك (بصرى- دمشق)، زيادةً في الاستهزاء به، فالمتلمس ينعم بخيرات دمشق وغلالها الكثيرة ولا حاجة له بأرض العراق ومحاصيله.

٢- رحلة المثقِّب العبديّ:

قصيدة المثقّب العبديّ التي سنقف عندها موجّهة في الأصل إلى عمرو بن هند، مطالباً إيَّاه أن ينجز ما وعد. وقد كثرت قصص هذا الملك مع الشعراء، فهو صاحب الأمر بقتل طرفة بن العبد، وخاله المتلمس الذي فرّ إلى الشام، وهو المقتول بسيف عمرو بن كلثوم. وكان أبو عمر بن العلاء يستجيد له هذه القصيدة، ويقول لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلّموه(١٥).

يفتتح المثقّب قصيدته بطلب المتعة من محبوبته فاطمة قبل رحيلها، يقول:

أفاطمُ قبل بينك متّعيني
ومنعُك ما سألتُ كأن تبيني
فلا تعدي مواعدَ كاذبات
تمرُّ بها رياحُ الصيف دوني
فإنّي لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلتُ بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني
كذلكَ أجتوي من يجتويني(١٥)

يتوجّه الشاعر بعتاب شديد اللهجة إلى محبوبته المراوغة، إنه يريد الخير من لقائه بها، وهي تخلف المواعيد، إنّها تحبّ وتعطي، ثم تمتنع، وهي مراوغةٌ لا تعبِّر تعبيراً مباشراً عما في داخلها. المثقِّب يطالب بالوصال، ومنعها تحقيق الوصال يساوي تماماً البعد. إنّه يطرح هذه القضية ببساطة، وهذا ينمّ عن رغبته في ذلك، فهو يتوجّه إلى عمرو ابن هند طالباً منه أن يحلّ هذه القضية حلاًّ عادلاً وإلاَّ. وكذلك يا فاطمة إمّا أن تصدقي معي بالحب وإلاّ.

نسمة الصيف حالة مرجوّة لأنها تبرّد جو الصيف، ومع ذلك فهي حالة كاذبة مؤقّتة، وليست حالة دائمة، وهي أيضاً تأتي بالغبار والعجاج، وفي قوله ((فلا تعدي مواعد كاذبات))، فكأنّ لا شعوره متجه إلى عمرو بن هند.

ويراقب المثقّب الظعائن المرتحلة، فيشعر بالألم يتسرّب إلى أعماقه، فالنساء جميلات وظالمات في آن واحد، أظهرن بعض محاسنهنّ، وأخفين بعضها، ولا يجد الشاعر سبيلاً لإمضاء همومه سوى الارتحال على ظهر ناقة قويّة، يقول:

فسلّ الهمَّ عنك بذات لوثٍ
عُذافرةً كمطرقة القيونِ
بصادقة الوجيف كأنَّ هرًّا
يباريها ويأخذ بالوضينِ
كساها تامكاً قرداً عليها
سواديُّ الرَّضيخِ مع اللجينِ
إذا قلقت أشدُّ لها سناماً
أمام الزورِ من قلق الوضينِ
كأنَّ مواقعَ الثفنات منها
معرَّس باكراتِ الوِرْدِ جُونِ
يجدُّ تنفُّسُ الصعداء منها
قوى النسع المحرَّم ذي المتونِ
تصكُّ الحالبين بمشفَترٍ
لهُ صوتٌ أبحُّ من الرنينِ
كأنَّ نفيَّ ما تنفي يداها
قذاف غريبة بيدي معينِ
تسدُّ بدائم الخطران جثلٍ
خوايةَ فرجِ مقلات دهينِ
وتسمعُ للذباب إذا تغنَّى
كتغريد الحمام على الوكونِ
فألفيتُ الزمامَ لها فنامت
لعادتها من السَّدف المبينِ
كأنَّ مُناخها مُلقى لجامٍ
على معزائها وعلى الوجينِ
كأنَّ الكورَ والأنساعَ منها
على قرواءَ ماهرةٍ دهينِ
يشقُّ الماء جُؤجُؤها ويعلو
غواربَ كلِّ ذي حدبٍ بطينِ
غدت قوداءَ مُنشقَّاً نساها
تجاسرُ بالنخاع وبالوتينِ
إذا ما قمتُ أرحلها بليلٍ
تأوَّهُ آهةَ الرجل الحزينِ
تقول إذا درأتُ لها وضيني:
أهذا دينهُ أبداً وديني
أكلُّ الدهر حلٌّ وارتحالٌ
أما يبقي عليَّ وما يقيني
فأبقى باطلي والجدُّ منها
كدكّان الدرابنة المطينِ
ثنيتُ زمامَها ووضعتُ رحلي
ونُمرُقة رفدتُ بها يميني
فرحتُ بها تعارضُ مسبطرًّا
على صحصاحه وعلى المتون(١٦)

أراد المثقّب لناقته أن تكون ممتلكة أسباب القوّة إلى أقصى حدودها، صادقة في سيرها، لا يقف في وجهها عائق. يبدو أن الشاعر يبحث عن الصدق في كل علاقاته، عن صدق فاطمة في وعودها، وعن صدق الملك في إنجازه ما وعد، وعن صدق هذه الناقة، وهذا يعني أن الشاعر يعيش أزمة ثقة بمن حوله.

صورة الهرّ الذي يباري الناقة، تشير إلى سرعتها، وهي صورة نلمحها عند كثير من الشعراء(١٧). وكما أشرت سابقاً،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فإنّ قوّة الناقة تفرض ارتفاع سنامها، فهذه الناقة علفت نوًى مدقوقاً من سواد العراق وهذا الاتساع يقود إلى توازن الرحل على ظهرها، فإذا اختلَّ بسبب السرعة شدّه بالحبل. وهذه الناقة كريمة وعتيقة، فثفناتها لا تطأ الأرض، وتشكّل معرَّساً يمكن أن يمضي فيه القطا الأسود آخر الليل.

يرسم الشاعر بألفاظه صورة هذه الناقة، يجلعنا نحسّ بها دون أن نراها. لاحظ كيف يؤدي نَفَسُها المردود إلى جوفها إلى قطع سيرها القوي، وهي من شدة وطئها على الأرض تفلق الحصى الذي يتطاير هنا وهناك، فيضرب جسدها، ويسمع له صوت غليظ. ليس هذا فحسب، بل إنها لصلابتها ونشاطها تضرب الحصى بعيداً، وشبّه ما تنفي يداها من الحصى بحجارة تقذف بها ناقة غريبة أتت حوضاً غير حوضها لتشرب منه فرميت.

لم تغب صورة ذيل الناقة عن عيني المثقّب، فهو كثير الحركة كثيف الشعر، وأشار إلى أنّه لم يبق لها ولد، ولبنها قليل، وذلك أقوى لها. وهذه الناقة فتيّة، فأنت تسمع صريف أنيابها الذي يشبه تغريد الحمام في أعشاشها، ويراقب الشاعر وقت قيلولتها، فيرخي لها الزمام، وتنام على أرض مرتفعة كثيرة الحصى عندما يشتد الضوء. ويشبه الشاعر ناقته بسفينة واسعة تسبح فوق الماء، وها هو صدرها يقسم الماء شطرين والموج العالي يضرب كل شيء. هذه الصورة مستمدّة من البيئة البحريّة، فالشاعر كان يعيش على سواحل البحرين. ويعود الشاعر إلى صفة الضخامة، فقد سمنت هذه الناقة حتى انفلقت اللحمتان في الفخذين، فظهر عرق النسا بينهما.

يبدأ التحول في صورة الناقة عندما يشخّصها المثقب، فيجعل منها إنساناً محاوراً متألماً، فالمثقب الذي يعبر عن ضيقه بالرحيل، لم يصرّح بذلك مباشرة وإنّما استخدم لسان ناقته لتحقيق ذلك، وهذا يعني أنّه وصل درجة عالية من الإحساس بها، إذ أخذت الناقة تشكو ظلم صاحبها، وعدم إشفاقه عليها، فما باله يضع الرحل متى يشاء استعداداً للرحيل! وها هي تستنكر هذا السلوك غير المرغوب به، وتعاتب صاحبها عتاباً رقيقاً، طالبة منه الكفّ عن الارتحال، فهي لا ترى هدفاً يمكن تحقيقه بهذا الرحيل المتواصل.

الشاعر الذي شخص الناقة جعلها تعبر عن مشاعره وأحاسيسه، فغدت معادلاً له، ورغم ذلك، فإنّ الشاعر لم يجعلها ناقة هزيلة معيبة، فهناك هدف سام يسعيان معاً لتحقيقه. صحيحٌ أنّه ركبها في طلب اللهو والغزل، وكانت جادّة في سيرها لم تتململ، إلاّ أنّها بقيت محافظة على ضخامتها "كد كان الدرابنة المطين". الشاعر يقرّر الرحيل، فيثني الزمام، ويضع الرحل، ويعتمد على وسادة يضعها على يمينه، يبدو أن الشاعر يريد الراحة في مسيره، فهو متوجّه لمقابلة الملك عمرو بن هند، وهذا يتطلَّب منه استعداداً نفسيًّاً، ولهذا كان الطريق ممتدّاً على أرض مستوية وغليظة، فهو يريد أن يصل بسرعة إلى الملك:

إلى عمرٍو ومن عمرٍو أتتني فإمّا
أخي النجدات والحلم الرصين
أن تكونَ أخي بحقٍّ
فأعرفُ منك غثّي من سميني
وإلاّ فاطَّرحني واتَّخذني
عدوّاً أتَّقيك وتتّقيني(١٨)

الخاتمة:

وصلت رحلتي إلى نهايتها مع هذه القراءة الجديدة لمشهد الناقة في القصيدة الجاهليَّة، فإن كانت القراءة الدراميَّة لهذا المشهد نافعةً للقرَّاء فذلكَ فضلٌ من الله، ولا يسعني في النهاية إلا أن أشكر إدارة المؤتمر الثامن للغة العربيّة لإتاحتهم لي هذه الفرصة لتقديم البحث.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر والمراجع

١- ابن الأبرص، عبيد (١٩٥٧)- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح د. حسين نصَّار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى.

٢- ابن قتيبة: الشعر والشعراء (٢٠٠٥)- تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الجزء الأول.

٣- امرؤ القيس (١٩٩٠)- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.

٤- أبو سويلم، د. أنور عليان (١٩٨٣)- الإبل في الشعر الجاهلي- دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث. دار العلوم، الرياض: القسم الأول.

٥- الحاج حسن، رائد (٢٠٠٥)- الناقة: الواقع والرمز- دراسة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير أجازتها جامعة حلب.

٦- رومية، د. وهب أحمد (١٩٧٦)- الرحلة في القصيدة الجاهليَّة، اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين، الطبعة الأولى.

٧- الضبعي، المتلمِّس (١٩٧٠)- ديوان شعر المتلمِّس الضُّبعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

٨- الضبّيّ، المفضَّل (١٩٦٤)- المفضّليّات، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

٩- الغنوي، طفيل (١٩٩٧)- ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسّان فلاح أوغلي. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

الهوامش

(١) رومية، د. وهب أحمد (١٩٧٦)- الرحلة في القصيدة الجاهليَّة، اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين، الطبعة الأولى: ص ١٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٢١.

(٣) الغنوي، طفيل (١٩٩٧)- ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسّان فلاح أوغلي. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى: ص ٩٩-١٠٢. المكمَّم: المغطى. جفن يينبم: موضع. رفعوا: جدُّوا. ازدهى: استخفّ. حرّاض: صاحبه. المستهام: الذاهب العقل. المتيّم: الذاهب الفؤاد. تشجى: تحزن. الشُّبْحة: الشيء يتشخص. الشيم: النظر. مغيم: ملبس بالغيم. الساهم: الضامر. الخوص: الغائرة العين. المخدم: ذوات الخدم في أرجلها. الإلال: جبل عرفة. لا يُنَحِّبْنَ غيره: لا يجعلن في أنفسهن غيره. ملبٌّ: من التلبية. أشعث: أغبر. الحوكي: ثياب عراقيَّة. مرقم: منقط. العقار: ثياب حمر. زهوه: حمرته. الأعلاق: العتاق. المفأم: الذي عرض ووسع. الأسيلة: السهلة الخد.

(٤) امرؤ القيس (١٩٩٠)- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة. ص ٥٧-٥٨. الأفلاج: الأنهار. تيمر: موضع. المكرعات: النخيل المغروسات في الماء. الصفا والمشقر: نهران بناحية اليمامة. السوامق: المرتفعات الطوال. الجبار: الذي فات اليد لطوله. القنوان: العذوق. البسر: ما احمرَّ من التمر. أوقر: حمل. اعتمَّ: كمل وتمَّ. الزهو: الأحمر والأصفر من البسر. تهصَّر: تثنَّى وتدلَّى. جيلان: قومٌ اتخذهم كسرى ليصرموا النخل.

(٥) أبو سويلم، د. أنور عليان (١٩٨٣)- الإبل في الشعر الجاهلي- دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث. دار العلوم، الرياض: القسم الأول، ص١٩٩.

(٦) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ١١٢. البسابس: جمع بسبس، وهي الأرض القفر.

(٧) المصدر السابق: ص ١١٣. ليان العيش: رخاؤه.

(٨) المصدر السابق: ص ١١٣. تَبالة: موضع باليمن. الخل: طريق في الجبل. تكمَّش: جدَّ وأسرع. قلصت: أسرعت في السير. فتلاء الذراعين: قويّتهما. مرقال: سريعة. الخلوج: المضطربة المتحركة. الدفقَّة: الناقة التي تتدفَّق في سيرها تدفق الماء. الوجناء: العظيمة. الشِّملال: الخفيفة.

(٩) المصدر السابق: ص ١١٤. الجيشانيَّة: برود حمرٌ وسود تنسب إلى رجل من اليمن. الخزامى: نبت طيب الرائحة. المذائب: الجداول الصغيرة.

(١٠) انظر: الحاج حسن، رائد: (٢٠٠٥)- الناقة: الواقع والرمز- دراسة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير أجازتها جامعة حلب، ص ١٠٩.

(١١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، الجزء الأول، ص ١٨٣.

(١٢) الضبعي، المتلمِّس (١٩٧٠)- ديوان شعر المتلمِّس الضُّبعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية: ص ١٠٠-

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

١٠٢. المستعمل: الطريق الموطأ. قذف: بعيد. حباب الماء: فقاعاته.

(١٣) ديوان المتلمس الضبعي: ص٨٢-٩٣. مطرق: شديد السواد. المسلوس: الذاهب العقل. تلحي: تلامي. الطرب: الفرح. أمرات: جمع مرت، وهي الأرض لا نبت فيها. الأماليس: جمع إمليس، وهي الأرض المستوية. بسل: حرام. الدهاريس: الدواهي المنكرات، واحدها دهرس. نخلة القصوى: موضع. شوس: الشَّوَس، النظر بمؤخر العين تكبّرًا وتغيّظًا. البوباة: ثنيّة في طريق نجد ينحدر منها صاحبها إلى العراق.

(١٤) المصدر السابق: ص ٩٥-٩٦. آليت: أقسمت. الكداديس: جمع كدس، وهو ما تكدّس من الحنطة فتكوّم.

(١٥) المفضَّليات: ق٧٦، ص٢٨٨.وانظر: ديوان المثقب العبدي: ق٥، ص١٣٦. الاجتواء: الكراهة والاستثقال.

(١٦) المصدر السابق: ص٢٩٠-٢٩٢. القرد: المتلبد. السوادي: نسبة إلى سواد العراق، يريد به العلف. الرضيح: النوى المدقوق. اللجين: ما تلجّن، أي تلزّج من ورق أو علفأو بزر. السناف: خيط أو حبل دقيق من المنحر إلى الحزام.الجون: السود، أراد بها القطا. يحذّ: يقطع. المحرّم: الذي دبغ ولم يلين. ذو المتون: ذو القوى. الحالبان: عرقان يكتنفان السرّة. المشفتر: المتفرق، ويعن الحصى. البحّة: صوت في غلظ.المعين: الأجير. الجثل: الكثير الشعر. الخواية: الفرجة. المقلات: التي لا يبقى لها ولد. الدهين: الناقة القليلة اللبن. الذباب: حدّ نابها. السّدف: الضوء. المعزاء: الموضع الكثير الحصى. القرواء: سفينة طويلة القر، وهو الظهر. الماهرة: السابحة. الدهين: المدهونة. الغوارب من كلِّ شيء: أعلاه. الحدب: ارتفاع الموج. البطين: البعيد الواسع. القوداء: طويلة العنق. منشقّاً نساها: وذلك إذا سمنت انفلقت اللحمتان اللتان في الفخذين، فيظهر النسا بينهما. الدين: الدأب والعادة. الكان: الدكّة المبنيّة للجلوس عليها. الدرابنة: البوابون: الواحد، دربان. المطين: المطليّ بالطين. النمرقة: الوسادة. المسبطر: الطريق الممتد. تعارض: تأخذ في عرضه، أي تسير بإزائه.

(١٧) يقول الأعشى:

بجلالة سرح كأنَّ بغرزها هرًّا إذا انتقل المطيّ ظلالها

ويقول أوس بن حجر:

كأنّ هرًّا جنيباً عند غرضتها والتفّ منها ديكٌ برجليها وخنزير

(١٨) المصدر السابق: ص٢٩٢.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2